(١)
المقومات الفنية في نتاجه الروائي

رفيقة بن رجب

غسّان كنفاني غني عن التعريف، ولن أضيف شيئاً إن حاولت أن أعرّف بحياته أو بنضاله، فقد كُتب عنه الكثير؛ غير أننا نلاحظ، من خلال ما كتب، أن شخصيته كمناضل طغت على شخصيته كأديب، وقد أثر ذلك في ما قدّم من دراسات عن آثاره، فكان الجانب الايديولوجي يحتل المكانة الأولى ويطغى على الجانب الفني، وكان الاهتمام بالمحتوى يذيِّل الاهتمام بالشكل الفني. ويمكن أن نقول ان ما ذكر من أحكام فنية كان، في أغلب الدراسات، من قبيل الملاحظات العابرة والانطباعات. ولا شكّ في أنّ اللوعة التي أحدثها استشهاده المبكّر، والرّغبة في أن يتعرف أكبر عدد ممكن من القرّاء على كتاباته هما اللذّان وجّها الدراسات هذه الوجهة. والآن، آن الأوان كي نعطي كتاباته حقّها من الدرس ونضاعف الاهتمام بالناحية الفنية.

لقد التزم غسّان كنفاني بأن يكتب عن الإنسان الفلسطيني، وأن يصوّر قضيته في جميع مستوياتها ويدافع عن حقوقه. التزم بتصوير واقعه برؤية مستقبلية تسعى لتغيير هذا الواقع وبأن يكون قلمه سلاحاً للمحافظة على الذات. ولا شكّ في أن هذا الالتزام جعله يطرح قضيّة الشكل الفني ودفعه لأن يبحث عن أكثر الأشكال خدمة لغاياته. وفي ما كتب نشعر أن هذا البحث قد أضناه؛ فهو ينتقل من شكل إلى آخر، وكأنه يشعر بضيق هذه الأشكال عن أن تحتوي التزامه الكبير، ولعلّه لم يشعر بالرضى عن أيّ منها.

ولقد اخترت أن أدرس الناحية الفنية في رواياته، وهي، في رأيي، تمثّل مرحلة أكثر نضجاً في انتاجه، لأنها جاءت متأخّرة نسبياً؛ إذ أنه، على سبيل المثال، كتب أغلب قصصه قبل أن يكتب روايته الأولى، وإنّ لهذا التأخر الزمني انعكاساً ايجابياً في المستوى الفني للروايات، إذ أمكنه أن يستغل التجربة الفنية التي اكتسبها خلال ممارسة

*في الثامن من تموز (يوليو) عام ١٩٨٢، تحل الذكرى العاشرة لاستشهاد الكاتب والمناضل الفلسطيني غسان كنفاني. وهذه الكتابات؛ بمناسبة ذكرى استشهاده، محاولة لتعميق النظرة النقدية لانتاجه الفني.